(بين الهجرة والأزمة)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214]

وَقَوْلُهُ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 41]

عن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشَدُّ بلاء؟ قال: **«الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ على حَسْبِ دِينه، فإن كان دِينُهُ صُلْباً اشتَدَّ بلاؤه، وإن كان في دِينه رِقَّة على حَسبِ دِينه، فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركَهُ يَمْشِي على الأرض وما عليه خطيئة»** [أخرجه الترمذي].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«مَا مِنْ مُصيبة تُصِيبُ المسلم إلا رفعَه الله بها درجة، وحطَّ عنه بها خطيئة، حتى الشَّوكة يُشاكُها»** [أخرجه البخاري ومسلم].

وَسُئِلَ الشّافِعِيّ –رَحِمَهُ اللهُ–: أَيّمَا أَفضَلُ للرّجُل: أَن يُمَكّنَ أَو يُبتَلى؟ فقَالَ: لَا يُمَكّنُ حَتّى يُبتَلَى؟

عنوان خطبة اليوم:

(بين الهجرة والأزمة)

أيها الإخوة:

بمناسبة مرور يوم الهجرة؛ هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، أحببتُ أن أستعرض معكم سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم من يوم نزلَت "اقرأ" وحتى لحوقِه صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، لنرى الأزمة التي نعيش، أين هي من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام.

ولا ريب أنكم جميعاً قرأتم السيرة أو استمعتم يوماً دروسها، أو على أقلّ تقدير رأى واحدكم "فيلم الرسالة" الذي عرض لسيرته صلى الله عليه وسلم، وتعالوا الآن نستذكر أبرز حوادث السيرة، لننظر الشِّدَّة التي نعيش؛ ما حجمها مما عاشه رسول الله صلى الله عليه وسلم:

– في اليوم الأول لنزول "اقرأ" ولُقيا جبريل عليه السلام: رجَف فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، وخَشِي على نفسه وبلغ الأمر منه الجهد، ونزل إلى خديجة عليها السلام يقول: **«زملوني زملوني، دثروني دثروني»**.

– في السنة الثانية للبعثة: تسامعت قريش بالإسلام، وبدأ يدخل فيه الضعفاء والفقراء والأتباع، فما راق لها ذلك ولا رضيت بذا الحديث، وبدأت تفكر ما تعمل؟!!

- في السنة الثالثة للبعثة: تزايدت أعداد من آمن ، وقريش تلاحق المؤمنين كما يُلاحَق المجرمون، ويراق أول دمٍ في الإسلام بعد شجار وقع بين سعد بن أبي وقاص وبعض المؤمنين من طرف، وقومٍ من المشركين استهزؤوا بعبادة المؤمنين ودينهم الجديد من طرف ثان.

وفي هذه السنوات الثلاث يدعو النبي صلى الله عليه وسلم الناس سرًّا ، يدخل ويخرج دار الأرقم خائفاً يترقب، ومثلُ خوفِه خوفُ أصحابِه الكرام رضي الله عنهم.

- في السنة الرابعة للبعثة: إعلان الدعوة في قريش لنزول قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:214]، وقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94]، ويقول عمه أبو لهب: تبّاً لك، ألهذا جمعتنا؟! ويقول أبو طالب: نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

يعذِّبُ سادةُ قريش أتباعَ النبي صلى الله عليه وسلم: اعتقالات- تعذيب - قتل- تشويه - تدمير للبنية التحتية - منع وصول الدواء والغذاء والكساء عن المؤمنين.

أتذكرون -أيها الإخوة- سيدنا بلالاً الحبشي رضي الله عنه كيف كان يُكوَى بنار صحراء مكة، أتذكرون عماراً رضي الله عنه كيف قتلوا أباه وبقروا بطنَ أمّه على مرأى منه، **«صبراً آلَ ياسر، فإن موعدَكم الجنة»**.

أتعلمون أن الزبير بن العوام رضي الله عنه أسلم وله من العمر أربع عشرة سنة، وكان عمه يُعَلّقه في حصير ويدخّن عليه ليرجع إلى الكفر، والزبير يقول: لا أكفر أبداً.

خباب بن الأرَتّ توضَع الحديدة المحماة على ظهره، وأبو فُكيهة يُربَط بحبل في رجله ويُجَرّ على رمال الصحراء، ومصعب بن عمير يبيت من دون مأوى أو ثوب ساتر، وتموت تحت التعذيب ثويبة، وتُصَاب بالعمى زنيرة ، رضي الله عنهم أجمعين، ولم يَسلَم قائد الركب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من الأذى: **«أوذيت في الله، وما أوذي نبيٌّ مثل ما أوذيت»**.

- السنة الخامسة للبعثة: يشتدّ أذى قريش، ويسافر الصحابة من ديارهم وقلوبهم فيها -هجرة الحبشة الأولى-، وفي المهاجرين بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم رقيّة وصهره عثمان، وقريش تلاحقهم إلى الحبشة، لمنع استقبالهم أو إيوائهم.

- وفي نهاية السنة السادسة للبعثة ومطلع السابعة: تُهاجر الدّفعة الثانية من الصحابة في هجرة الحبشة الثانية، زاد عددهم على الثمانين، من أصل عدد كلّيٍّ للمسلمين لا يتجاوز المئات الخمس، بمعنى أن ربع السكان أو قل خمسهم شُرِّدوا وسافروا وخرجوا من ديارهم.

- ثم تأتي السنوات العقيمات الثلاث؛ سنوات الحصار في شعب أبي طالب: ائتمَرَت قريش، وكتبوا في ذلك كتاباً وتعاهدوا وتواثَقوا على قطيعة اقتصادية واجتماعية وإعلاميّة للنبي صلى الله عليه وسلم ومَن آمَن معه، وكلّ

مَن ينصره أو لا يقف ضدّه: لا بيع ولا شراء ولا زواج ولا زيارة ولا أخذ ولا عطاء، ويطوف أبو لهب على التجَّار يقول لهم: غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدرِكوا شيئاً، وأنا أدفع لكم أضعافاً مضاعفة.

مات قوم من المؤمنين سغَباً، وعَصَرَهم الجوع عصراً، وتضاغى صبيانهم وعلا بكاؤهم، وزادت المحنة حتى لا تصفها عبارات القول، وخُيِّل للذين يستعجلون أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم قد غابت في رمال الصحراء سراباً، وطُويت طيّ السجل للكتب أثراً بعد عين.

- هكذا مَضَت سنوات الحصار -الثامنة والتاسعة والعاشرة- للبعثة، حتى إذا تنفَّس رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه الصّعداء بفكّ الحصار عنهم، تموت السيدة خديجة رضي الله عنها السَّنَدُ الداخلي للمصطفى صلى الله عليه وسلم، ويلحق الموتُ السَّندَ الخارجي أبا طالب، عمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتتمادى قريش لتؤذي الرسول الأكرم في جسده الشريف، يقول صلى الله عليه وسلم: **«ما بَلَغَت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»**، وفي هذه السنة -أي العاشرة للبعثة- خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وردَّ أهلُها عليه أشنع الردّ وأسوأه.

- في السنة الحادية عشرة والثانية عشرة: بدأ الاستعداد للهجرة إلى المدينة بإبرام بيعتَي العقبة الأولى والثانية، وانطلقت أعدادٌ من الأسر المكية وأفرادُ الصحابة ، تاركين بلادهم وبعض أموالهم أو كلَّها وشيئاً من ممتلكاتهم بل جلَّها، ومضوا إلى المدينة.

- وفي السنة الثالثة عشرة للبعثة هُدِّد رسول الله صلى الله عليه وسلم -كما تعلمون-، وصارت حياته عُرضة للخطر، وتمالأت قريش على قتله مجتمِعة ليضيع دمه بين القبائل، وأُذِن له بالهجرة تاركاً وراءه كل شيء لله، وباذلاً في طريقه كلّ شيء لدعوة الخلق لنور الهداية، فكانت هذه هي السنة الأولى للهجرة.

ويَعرِفُ اليوم -في هذه الأزمة- مَن أُخرِج من بيته بغير حقّ، وانطلق فارّاً حفاظاً على حياته وحياة أولاده معنى الهجرة، وما يعاني المبعَد عن بيته، وأيَّ غصَّة يتجرَّعها الكريم إذا بات من دون شيء، يستشعر تماماً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة: **«ما أطْيَبَكِ من بلد، وأحبَّكِ إليّ، ولولا أنَّ قومي أخرجوني منكِ ما سكنتُ غيرَكِ»** [أخرجه الترمذي].

وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فهل انتهت الشدائد والأزمات؟!

لَحِقَت قريش بهم، فكان:

- في السنة الثانية: غزوة بدر وبني قينقاع.
- وفي الثالثة: أُحُد وحمراء الأسد.
- وفي الرابعة: بني النضير وذات الرقاع.
- وفي الخامسة: الخندق وبنو قريظة
- وفي السادسة: خيبر والحديبية

- وفي السابعة: كانت عمرة القضاء
- وفي الثامنة: مؤتة وفتح مكة
- وفي التاسعة: حجَّ أبو بكر بالناس.
- وفي العاشرة: كانت حجة الوداع
- وفي شهر ربيع الأول في السنة الحادية عشرة للهجرة كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أيها الإخوة:

هذا سردٌ سريع واستعراض لما تعلمون من السِّيرة، كيف مرَّت أيامُها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَن حولَه من صحابةٍ كرام وآلِ بيتٍ أطهار...

شدائد عامة، وأزمات خانقة، وبلايا صلبة، آلام ومصاعب وأوجاع، هذا فضلاً عن الامتحانات الخاصة من فقرٍ وغنى، وصحَّة ومرض، وزواج وطلاق، وفقد ابن أو قريب أو حبيب أو نحو ذلك، ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 146 - 148]

وكأني برسول الله صلى الله عليه وسلم يعيش سنوات الدعوة الثلاث والعشرين في أزماتٍ وشدائد، دونها بكثير الأزمة التي نعيش في بلدنا من سنتين، أرأيتم الآن أين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

غير أني أحب أن أختم -أيها الإخوة- بقولي:

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من داره وبلده يطارده المشركون، وأُخرج إبراهيم عليه السلام يطارده النمرود، وخرج موسى عليه السلام يطارده فرعون،...فكان ماذا؟

كلما ذَكَرَت الأجيالُ إبراهيم وموسى ومحمداً صلوا عليهم، ولعن التاريخ مَن أخرجهم؛ ذلك لأن الحق أثبَت، وله جنود لا نعلمها.

فرّج الله همومكم، ويسّر أموركم، ولطف بالبلاد والعباد، وجعلني وإياكم ممن تابع تمسكه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:90].

مهما استطعتم أن تعينوا محتاجاً فافعلوا، ومهما قَدِرتم على نصرة مظلومٍ فافعلوا، ومهما تمكَّنتم من إغاثة ملهوفٍ فلا تُقَصِّروا، وكونوا مع الحقِّ يَكُن الحقُّ معكم، وأكثروا من الدعاء والالتجاء إلى الله، وقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، وأبشروا بحسن المنقلَب بإذن الله.

والحمد لله رب العالمين